تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

— ٦ —

٤ — ابن عطية :

يتكلم ابن عطية المفسر (٥٤٢ هـ) في تفسيره (Ms Berlin Spr 408) عن الإعجاز وقد ذكر رأيه السيوطي (الإتقان ج ٢ ، ص ١٩٨) فقال : «وقال ابن عطية : «الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه وذلك أن الله أحاط بكل شيء علماً وأحاط بالكلام كله فاذا أراد ترتيب اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبيّن المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن الى آخره والبشر يعتهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم ضرورة أن لا أحد من البشر يحيط بذلك فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة وبهذا يبطل قول من قال إن العرب كان في قدرتهم الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولاً ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرّا وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة احسن منها لم يوجد ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وقامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنّة المعارضة كما قامت الحجة في معجزة موسى بالسحرة وفي معجزة عيسى بالأطباء فإن الله إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبدع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره» .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويتبين لنا من هذا النص الواضح أنه ينكر الصرفة لأنه ليس في استطاعة العرب أن يحيطوا بالألفاظ والمعاني إحاطة الله ثم هو يجعل النظم دليل الإعجاز ويعلل بلوغه الغاية في النظم وصحة المعاني وتلاؤم الألفاظ بأنه كلام الله فهو لا يلجأ إلى مقارنته بكلام الناس وإنما يجعل الدليل مدلولاً والمدلول دليلاً فيدور في حلقة مفرغة ثم يرجع ما لا ندرك فيه الغاية في البلاغة من القرآن الى قصورنا لا الى أن في القرآن فصيحاً وأفصح منه كما يرى ابن حزم والخفاجي ثم هو يرى أن العرب زمن النبي كانوا أفصح ممن جاء بعدهم وأبين وأقدر على القول وأعرف بجميله وهذا ما لا أقره عليه كما ذكرت في بدء البحث أثناء الحديث عما دار بين العرب والقرآن .

٥ — ابن رشد :

قال الرافعي في كتابه الإعجاز : « لفيلسوف الإسلام القاضي أبي الوليد ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ كلام حسن في آخر كتابه (فصل المقال) لم نر مثله لأحد من العلماء بين فيه كيف احتوى القرآن الكريم على طرق التعليم المنطقية بجملتها تصوراً وتصديقاً وقد جعل الفيلسوف ذلك من إعجازه وهو وجه لو كان بسطه واستوفاه واستبرأ معانيه لجاء منه بكل عجيب غير أنه رحمه الله أشار اليه في الكلام إشارةً وجاء به عرضاً لا غرضاً » ويفصل الرافعي ذلك في ص ٢٨١ من كتابه .

وقول ابن رشد هذا هو من باب مذهب الغزالي القائل بأن القرآن قد حوى مبادئ العلوم كلها ويتصل من قرب بالنظرية العلمية في الإعجاز وليس في هذا القول مؤيد للإعجاز لأنه مجرد تمحك واصطناع للأدلة لما نعلم من أن القرآن لم يأت ليشرح العلوم أو يعدد نظريات المنطق وإذا كان قد استعمل في براهينه طرقاً شرحها المناطقة في كتبهم فذلك لا يعني أنه قصد الى ذكرها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيه باعتبارها مبادئ علم المنطق وإنما لأن للفكر الإنساني في البرهنة في كل عصر وبيئة طرقه العقلية العامة التي هي قدر مشترك بين الناس والتي وجدت قبل أن يوجد علم المنطق وكان من الطبيعي أن يعرفها غير المناطقة بالبديهة وممارسة الدفاع عن الرأي والاحتجاج له .

تلخيص ونقد :

أختم هذا العصر بملاحظة أن النظرية العلمية في الإعجاز ذكرت فيه لأول مرة على لسان الغزالي فيمن اطلعت على آرائهم حتى زمنه من الباحثين ثم تلاه في القول بها القاضي عياض ثم ابن رشد الذي وجد في هذا العصر نفسه وتكلم في ناحية منها . ونلاحظ أن البافين كانوا مقلدين أو جامعين لآراء من قبلهم وأن الزمخشري منهم يقول بإعجاز القرآن من حيث البيان ويسرد رأيه هذا في تفسيره الكشاف ولكنه يقول بأن القرآن حادث ومن غير ذلك لا يكون معجزاً لأن التحدي يبطل حينئذ ولا يصح لاستحالة الإتيان بمثل القديم .

* * *

القرن السابع الهجري

أشهر من تكلم على فكرة الإعجاز في هذا العصر فخر الدين الرازي المفسر المتكلم والسكاكي الأديب أحد علماء البلاغة وابن العربي الصوفي المتكلم وعلي الآمدي وحازم القرطاجني المتكلمان . وفيما يلي كلمة في كل منهم .

١ً — فخر الدين الرازي :

تحدث الإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) عن الإعجاز في عدة كتب له ويقول عبد العليم الهندي أنه لم يأت بجديد من عنده ويذكر أنه إنما اختصر كتابي الجرجاني : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ونظمهما من جديد في كتابه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« نهاية الايجاز في دراية الإعجاز » الذي جاء برأي الجرجاني في صورة أوضح .
ويتعرض الرازي لهذه المسألة في تفسيره وفي كتابيه في علم الكلام : « معالم أصول الدين » و « محصل أفكار المتقدمين » .

أما كتاب نهاية الايجاز فيمكن تلخيصه بما يلي :

١ً — ذكر الرازي أن الدليل على إعجاز القرآن عجز العرب عن معارضته مع أنهم تحدوا اليها .

٢ً — ثم يقول إن للناس أربعة مذاهب في وجه كونه معجزاً :

آ) مذهب الصرفة ، وبعد أن يشرحه كما قال به النظام ينقضه بأنه لو كان صحيحاً لما تعجب العرب من فصاحة القرآن ولكان نسيان العرب للصيغ المعلومة في مدةٍ يسيرة دالاً على زوال العقل ومعلوم أن العرب لم تزُل عقولهم بعد التحدي .

ب) مذهب مخالفة أسلوبه لأسلوب الشعر والخطب والرسائل لا سيما في مقاطع الآيات مثل يعلمون وتعلمون ويراه باطلاً لخمسة وجوه :

١ً) لو كان الابتداء بالأسلوب معجزاً لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً .

٢ً) الابتداء بالأسلوب لا يمنع من الاتيان بمثله .

٣ً) يكون ما ألفه مسيلمة على الأسلوب نفسه معجزاً .

٤ً) لا يقع تفاوت حينئذٍ بين « ولكم في القصاص حياة » وبين « القتل أنفى للقتل » .

٥ً) وصف بعض العرب له بأن له حلاوةً وأن عليه لطلاوة لا يليق بالأسلوب حينئذ .

ج) مذهب أن الإعجاز في عدم التناقض ويرد عليه بأنه يلزم حينئذ عدّ كثير من الكلام غيره معجزاً لخلو كثير من الكلام منه .

د) مذهب جعل الإعجاز في الإخبار عن الغيوب وهو عنده باطل لأن الغيوب لا توجد في كل سورة وآية . ولم يبق في رأيه من كون القرآن معجزاً إلا الفصاحة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا هو رأيه موجزاً ونلاحظ عليه أنه نقض كل المذاهب التي ذكرها وقصر الإعجاز على الفصاحة وسنرى أنه يناقض رأيه هذا في تفسيره كما نلاحظ أنه لا ينظر الى الإعجاز الا من جهة واحدة ويقع فيما وقع فيه غيره من أنه يقدم وجهاً وينكر ماعداه ولا ينظر الى القرآن نظرةً عامةً جامعة ليرى أنه معجز لعدة أمور اجتمعت بعضها الى بعض فكونت جماله ؛ فلا شك في أن للأسلوب وعدم التناقض وجمال المعنى أثراً كبيراً في جمال الكلام . ثم لا بد هنا من ملاحظة أن السيوطي ذكر رأي الرازي في الإعجاز فقال إنه الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب وقد رأينا هنا أنه يرفض أن تكون غرابة الأسلوب وجهاً في الإعجاز فيتبين في ذلك خطأ السيوطي في نقله رأي الرازي .

وأما ما ذكره الرازي في تفسيره الكبير مفاتيح الغيب عند تفسير آية التحدي في سورة البقرة « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا الخ » فيمكن تلخيصه فيما يلي :

١ً — إن ذكر هذه الآية في القرآن هو للبرهان على صحة النبوة .

٢ً — يمكن بيان كونه معجزاً من طريقين : آ) القرآن معجز لأنه زائد على سائر كلام الفصحاء بقدر ينقض العادة ودليل ذلك عجز العرب عن معارضته بعد أن تحداهم برغم دواعيهم وعداوتهم وحميتهم ثم بقول إنه اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته وهو مع ذلك في النهاية من الفصاحة ؛ منها :

١ً) ان فصاحة العرب فيما تقع عليه مشاهدهم وأحاسيسهم من بعير وجمل ... ولم يتكلم القرآن في شيء منها فكان يجب ألاّ تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفق العرب عليها في كلامهم . ٢ً) إن القرآن تجنب الكذب ومع ذلك فهو فصيح والشعر أعذبه أكذبه ولهذا نزلت قيمة شعر حسان ولبيد بعد الإسلام لتحريها الصدق . ٣ً) لا تقع الفصاحة في كل كلام الشاعر أو الخطيب والقرآن كله فصيح . ٤ً) كل فصيح إذا كرر الكلام في موضوع واحد لم يحافظ على فصاحته الأولى والقرآن فصيح في تكراراته الكثيرة . ٥ً) إنه يتكلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في العبادات وأحكام الدين والآخرة والكلام فيها يوجب نقص الفصاحة وهو مع ذلك فصيح ٠ ٦ً) كل شاعر ينبغ ويحسن شعره في فن والقرآن كان فصيحاً في كل فن يتكلم فيه ٠ ٧ً) القرآن أصل العلوم كلها ، ولكنه حين عددها عدّ منها علم الكلام والفقه وأصول الفقه واللغة والزهد وأخبار الآخرة ومكارم الأخلاق ٠

ونلاحظ أنه في الوجوه الستة الأولى يكرر ما قاله الباقلاني قبله أما في الوجه السابع فيذهب مذهب الغزالي وقد ذكر الأستاذ أمين الخولي أن الرازي هذا قد عرض لقضية الإعجاز العلمي أثناء تفسيره (التفسير : معالم حياته ومنهجه اليوم ، الخولي ص ٢٠) ٠

ب) الطريق الثاني للبرهان على الإعجاز أن القرآن إذا لم يكن معجزاً ولكن العرب مع توفر دواعيهم لم يستطيعوا معارضته فعجزهم أمر خارق للعادة فكان ذلك معجزاً وهذا الطريق في نظر المؤلف أقرب للصواب وهنا نراه يناقض ما جاء به في كتابه «نهاية الايجاز» فقد نقض الصرفة هناك وأخذ بها هنا ٠

٣ً — يذكر اعتراض العرب زمن النبي على أن القرآن من جنس كلامهم فهو ينزل بحسب المناسبات وردّه عليهم بتحديهم بمثله إن استطاعوا ذلك ٠

٤ً — يذكر أن التحدي في القرآن وقع على وجوه ثم يذكر التدرج في هذا التحدي وهو يرى أن القرآن تحداهم بالأكثر فالأقل حتى انتهى الى التحدي بسورة ثم يقول إنه ربما ادّعى مدّع أن الإتيان بمثل سورة الكوثر غير معجز فاذا ادعيتم انه معجز كابرتم فهو في مقدور البشر فيردّ المؤلف أنه لهذا فضل الصرفة وجمع القول بالصرفة الى القول بالإعجاز من حيث الفصاحة ٠ وهنا نلاحظ كيف أصبح المتأخرون من المؤلفين يجمعون بين النقيضين في البرهنة على قضية الإعجاز وقد سبقه الى ذلك الرماني من المؤلفين الذين درسناهم ٠

٥ً — يتعرض لقضية الجبر في مناقشة مسألة الإعجاز فيقول : قال القاضي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

— ولا ندري من يقصد به — ويذكر ما معناه أن القول بالتحدي يبطل الجبر لأن الانسان لا يتحدى الا بشيء قادر عليه فاذا كانت أفعال الإنسان ليست له وإنما هي من صنع الله فيبطل التحدي لأن الله حينئذ يتحدى نفسه والنبي إنما يحتج بكونه معجزاً لأنه من عند الله والجبر يجعل الأفعال كلها من عند الله ولا يكون فرق بينها وبتساوى المعجز وغير المعجز ويرد على قول هذا القاضي بأن إتيان الخصم بالتحدى موقوف على أن يحصل في قلبه قصداً إليه لا اتفاقاً فإذا كان منه لزم التسلسل وهو محال وإن كان من الله تعالى فحينئذ يعود الجبر ويبطل ما قال القاضي .

ونحن نرى أن مثل هذه المناقضة الكلامية لا تحل هذه المسألة الفلسفية وليس أحدهما بأقوى حجة من الآخر وكل منهما يجعل بنيانه على أساس جدلي وهو أساس هار ينهار به الى سفسطة من الكلام ليس لها نتيجة .

٦ً — يذكر أن شدة التحدي في قوله : « ولن تفعلوا » دليل على صدق النبي وثقته بنفسه وعلمه بعجز الناس عن معارضة القرآن ثم يقول إنه لم يستطع إنسان معارضته من أيام النبي الى الآن وهذا مؤيد لقوله .

٢ً — السكاكي :

جرى السكاكي (٦٢٦هـ) في كتابه مفتاح العلوم على سنن عبد القاهر الجرجاني وزاد عليه فيه بعض أبحاث في علم البديع لم يطرقها هذا كما استرسل فيه أكثر منه في صبغ البلاغة بالصبغة الفلسفية . وقد بوّب فيه بحوث البلاغة ونظّمها وأعطاها شكل القواعد التي بين أيدينا الآن . وكل من جاء بعد السكاكي فإنما أخذ عنه أو شرحه .

والسكاكي في كتابه مفتاح العلوم يقول بأن القرآن معجز بالنظم على طريقة عبد القاهر ثم يرى ما يراه هذا من أن الإعجاز يدرك بالذوق وطول خدمة علم البلاغة وممارسة الكلام البليغ . وقد قال السكاكي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أولاً بإمكان تعليل الإعجاز وبيان وجهه واندفع مع القائلين بذلك ثم نكب عن هذه الطريقة ورفض القول بها وفي ذلك يقول : « واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا وطريقة الذوق خدمة هذين العلمين (مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٧٦) .

ثم يتصدى السكاكي لبيان بطلان ما يذكره معللو الإعجاز من الأوجه وجهاً وجهاً ويقول بعد ردها كلها : « فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ولا طريق لك الى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين بعد فضل إلهي من هبة يهبها بحكمه من يشاء وهي النفس المستعدة لذلك فكل ميسر لما خلق له ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه فلكم سحبنا الذيل في إنكاره ثم ضممنا الذيل ما إن ننكره فله الشكر على جزيل ما أولى وله الحمد في الآخرة والأولى » (ص ٢١٦ من المرجع نفسه) .

وبهذا يكون السكاكي قد اهتدى الى الطريقة الصحيحة المعقولة في القدرة على فهم الإعجاز دون تعليله بقواعد جافة يناقض بعضها بعضاً ولا سيما وأن مقومات القول الجميل لم تكن قد فصل القول فيها بعد كما هو الأمر في عصرنا حين تمّ امتزاجنا بالثقافات الغربية الحديثة واطلاعنا على آداب أوسع آفاقاً من أفق أدبنا المقصور على أنواع من الكلام دون أخرى .

٣ ـ ابن العربي :

نرى لابن العربي (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ) رأياً في الإعجاز ذكره السيوطي نقلاً عن كتابه الذي وصفه السيوطي بأنه لم يصنف مثله (الاتقان ج ٢ للسيوطي ص ١٩٨ وما بعدها) ويتلخص فيما يلي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أ — عرّف المعجزة بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة ثم قسمها الى حسية وعقلية وقال إن معجزات بني اسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم ومعجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكاء أبنائها .

٢ — معجزة القرآن خالدة أبد الدهر لأن الشريعة الإسلامية خالدة ويذكر بهذه المناسبة حديث النبي : « ما من الأنبياء نبي أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله اليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً ، أخرجه البخاري » .

٣ — خرق القرآن للعادة هو في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به وقال إن معجزات القرآن تشاهد بالبصيرة — وذلك أثناء شرح الحديث النبوي السابق — فيكون من يتبعه لأجلها أكثر لأن المحسوس ينقرض بانقراض مشاهده بعكس المعقول الذي يبقى فيشاهده كل من جاء بعد الأول .

وابن العربي هنا لا يأتي بجديد وهو من المؤلفين الذين يأخذون آراء من سبقوهم كما هي بدون ابتكار أو تجديد فيضمون رأياً الى آخر أو يفردون رأياً عن آخر من دون أن يبرهنوا برهاناً مقنعاً أو كافياً على العلة التي فضلوا بها الرأي الذي نصروه .

٤ً — الآمدي :

تكلّم علي بن أبي علي الآمدي (٦٣١ هـ) في كتابه « أبكار الأفكار » (M S Berlin Pet. 233) على الإعجاز وهو يقصر عمله فيه على شرح وتفصيل أدلة السابقين وشأنه في ذلك شأن غيره من المتكلمين المتأخرين الذين يفيضون في الكتابة ليوضحوا دليلاً من هذه الأدلة وهو يضع أسئلة يتوقع أن تثار في ذهن القارئ ثم يردّ عليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما خلاصة رأيه في الإعجاز فقد ذكرها الألوسي في مقدمة تفسيره وهي أن الإعجاز بجملة القرآن وبالنظر الى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب ويقول الألوسي إن رأي الآمدي هذا قد ارتضاه الكثيرون (الألوسي ج ١ من تفسيره ص ٢٩) .

والآمدي في قوله بأن القرآن معجز بجملته إنما يجمع جملة آراء المتقدمين وينظر الى القرآن نظرة عامة شاملة لا نظرة ضيقة من ناحية واحدة كما فعل كثيرون غيره .

٥ — حازم القرطاجني :

ونرى في هذا العصر حازم بن محمد القرطاجني (٦٨٤هـ) يؤلف كتابه «منهاج البلغاء» ويقول عبد العليم الهندي (في مقالته السابقة) بأنه يوجد كتاب للكاتب نفسه في مكتبة بالمدينة باسم «البرهان القاصف عن إعجاز القرآن» ولعله كتاب منهاج البلغاء نفسه .

أما خلاصة رأيه في الإعجاز فقد أوردها السيوطي (الإتقان ج ٢ بحث الإعجاز) وهي : «وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائه في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه بل توجد في تفاريق وأجزاء منه» .

ويتجلى بذلك أن حازماً هذا لم يعمل أكثر من أن أخذ أحد براهين الباقلاني في الإعجاز وهو «استمرار الفصاحة في كل أقسام القرآن» ووسّعه بدون أن يضيف اليه جديداً غير تعليله بأن تقصير البشر ناتج عن اعتراض الضعف الانساني لهم في فترات الكلام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نقد وتلخيص :

الفكرة العامة التي نأخذها عن مؤلفي هـذا العصر الذين تكلمنا عنهم هي أنهم كانوا مجرد ناقلين أو شارحين أو جامعين لآراء من سبقوهم وأن أحدهم وهو الآمدي يصلح أن يكون مثالاً من المتكلمين المتأخرين فهو يأخذ حجج من قبله فيوسعها وقد رأينا انه ينظر الى القرآن نظرة عامة فالقرآن معجز عنده بجملته ولكنه في هذا أيضاً متبع وليس مبتدعاً ورأينا أن فخر الدين الرازي ينكر الصرفة في كتاب وينصرها في آخر وأنه يجمع في هـذا الأخير بين النقيضين : الصرفة والبلاغة ، دون أن يرى مانعاً عقلياً من ذلك .

(يتبع) نعيم الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net